الفصل الثاني

المسعدي مُربِّيًا و مُعلّمًا

كان الشيخ عبد القادر بن إبراهيم المسعدي عضوًا فاعلا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. و عمل مدرسا بنوادي الجمعية و معلما في المدارس الحرة متنقلا بين مدينتي مسعد و الجلفة. و بمنطقة الجلفة كان هناك أكثر من عشر مابين مدرسة حرة و نادي إسلامي ينشط، منها ثلاث مدارس و ناديان تابعان لجمعية العلماء[1] و بالرغم من قلة هذه المدارس و النوادي و اتساع مساحة المنطقة ألا إنَّها شهدت مآزرة و تشجيعا من طرف العلماء و المشايخ و المعلمين الذين كانوا في الصفوف الأولى و انخرطوا في الجمعية و ساهموا في نشر اللغة العربية و الحفاظ على الدين الإسلامي كما ساهموا في نشر رسالة العلم من خلال التعليم العربي الحُر و في بث روح الوطنية و الحماس لدى المواطنين.ألا إنَّ ظروف التعليم العربي كانت قاسية بالجلفة حيث تترصد عيون الاستعمار كل بادرة للتعليم العربي و التربية الإسلامية. و هو الشيء الذي جعل المسعدي و غيره من أعلام المنطقة يصرون على التعليم مبدين تحديهم للإدارة الفرنسية خاصة المسعدي الذي عرف عنه إرادته الصادقة و عزيمته القوية في الاطلاع و الرغبة الجامحة في تحصيل العلم و متابعة الاستعمار له و الاضطهاد الذي عايشه عن قرب من قضاة مسعد و حكامها العسكريين و المدنيين و هي كلها عوامل ساهمت في تشكيل شخصية المسعدي العلمية و التربوية. مع ما ذكره في إحدى رسائله

---

١ حسب إحصائيات جريدة البصائر عدد ٦٥ سنة ١٩٤٩

المخطوطة حيث يقول :"لم يكن ببلدي مَن يحسن هذه الصنعة مثلي و لذلك وجب عليَّ التعليم شرعًا".

و لا يخفى أنَّ الوعي الثقافي في الفترة الممتدة مابين ١٩٢٦ و١٩٣١ بدأ ينشط من خلال الزيارات التي كان يقوم بها أعلام الجزائر من مشايخ و أساتذة للمنطقة من أجْل إلقاء الدروس و المحاضرات و تنشيط الندوات. إلى أن نشطت الحركة التعليمية بظهور جمعية العلماء في الخامس من ماي ١٩٣١ باعتبارها حركة عربية اسلامية إصلاحية. و قد كان الصراع على أشدِّه خاصة حول التعليم العربي و الديني و منع المستعمر للمدارس من مزاولة نشاطها التعليمي و الزج بالمعلمين الأحرار و مُدرسي جمعية العلماء في السجون و نفي بعضهم و وضع آخرين تحت الإقامة الجبرية و متابعة آخرين و ترصد حركاتهم. بل و الأكثر من ذلك ما ذكره المسعدي من العقوبات المُسلطة حتى على التلاميذ و الطلبة الذين يلتحقون بتلك المدارس أو مِمَّن يستمعون للدروس إذ يقول: " ...و في هاته السنة قام حاكمنا الحالي بإغراء من اولائك الأعداء فصار يتتبع جميع من يأتيني لطلب العلم بالحبس و التغريم و الضرب و نتف اللحى و يقول لَمن يحبسه لا أترك سبيلك حتى تضع خط يدك على أنَّ عبد القادر بن ابراهيم عدو للدولة فمنهم مَن وضع خطه جبرا و منهم من امتنع و احتمل الضرب و نتف اللحية و التغريم مرات عديدة"[1]. باعتبار أنَّ التعليم العربي الحُر كان يُشكّل خطرًا على بقاء المستعمر و حتى على المحافظين من المعلمين و ائمة النظام الموالين للاستعمار و رجال الطرق و الدجالين الذين لا تخرج دروسهم عن الحيض و النفاس، و كانوا هم الآخرون مساهمين في المكائد إذ عملوا كل ما في وسعهم للوشاية بالعلماء البارزين الذين نافسهم على رئاسة العلم و الدين و فضحوا و كشفوا مستواهم العلمي الحقيقي، و في ذلك يقول المسعدي" و لَمَّا تعاطيت التعليم رفض بعض الناس جميع الطلبة – أي المعلمين و الأئمة – الذين كانو يترأسون الدين و لغة القرآن لَمَّا لم يجدوا فيهم الكفاية بل قالوا لهم تعلموا معنا

---

١ كانت فرنسا تستعمل أسلوب التهديد و الوعيد مع كل شخص يحتك بالمسعدي أو يجلس معه أو يقرأ عليه منها ما وقع مع أولاد بوكامل من الأخوة المزابيين بالجلفة حينما طلبوا من الشيخ أن يدرس لهم الأدب و اللغة

ما كنتم تجهلون. و هذا هو السبب الوحيد الذي أوغر صدورهم و أثار فيهم كمًّا من الأحقاد عليَّ و لكنهم لم يجدوا لدى العامة مطعنا في علمي و لا عِرضي فانصرف أولائك الطلبة بداعي المنافسة و الحسد إلى الوشاية لدى السادة الحكام بأنِّي رجل مشاغب عدو للحكومة فكان القضاة السالفون من أفراد تلك الجماعة المتأثرة و إمام المسجد الجامع الذي كان يرى نفسه أهلا لمنصبه فصار وجودي مصيبة عليه و عليهم ".

و قد ألتحق المسعدي بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ المؤتمر التأسيسي. حيث حضر يوم الثلاثاء ١٧ ذي الحجة ١٣٤٩ الموافق ٥ ماي ١٩٣١ الاجتماع العام الذي عقد بنادي الترقي بالعاصمة و الذي انبثق عنه ميلاد الجمعية. و وضع قانونها الأساسي و المصادقة عليه، و الموافقة على تشكيل المكتب الإداري للجمعية و كان المسعدي من بين اثنين وسبعين عالمًا من القُطر الجزائري الذين وجهت لهم الدعوة من طرف الأستاذ أحمد توفيق المدني و حضروا اللقاء. كما ألتقى المسعدي رفقة أعيان أولاد نائل و علمائها بالإمام الشيخ عبد الحميد ابن باديس عند زيارته للمنطقة إذ حل بمدينة الجلفة في أواخر سنة ١٩٣٢ . و ألقى ابن باديس دروس منها درس في مسجد البرج العتيق و زار منطقة المعلبة.

كما ساهم المسعدي رفقة الشيخ محمد بربيح في إنشاء فرع الجمعية و في الاتصال مع المعلمين لتكوين خلايا عبر كامل المدن مع العلماء. و كان له حضور في أشغال الجمعية العامة لجمعية العلماء المنعقدة في العاصمة من ١ الى ٣ / ١١ / ١٩٣٤ بناء على الدعوة الموجهة إليه من رئيسها بتاريخ ١٩٣٤/١٠/١٧ . و التي أصبح عضوًا فاعلاً و بارزًا في صفوفها، أقام من خلالها علاقات متينة مع شيوخها خاصة مع الإمام و الأستاذ المُربِّي محمد البشير الإبراهيمي الذي كان يتبادل معه الزيارة و يراسله باستمرار. و مباشرة بعد ذلك تأسست شعبة لجمعية العلماء بالجلفة تتكون من عدد من العلماء و المثقفين و الأعيان و بدأ العلماء و الشيوخ يلتحقون بصفوفها كمعلمين و قد تشكل مكتب إداري للشعبة يرأسه الشيخ محمد شونان في سنة ١٩٣٤ مع عدد من الأعيان خاصة .

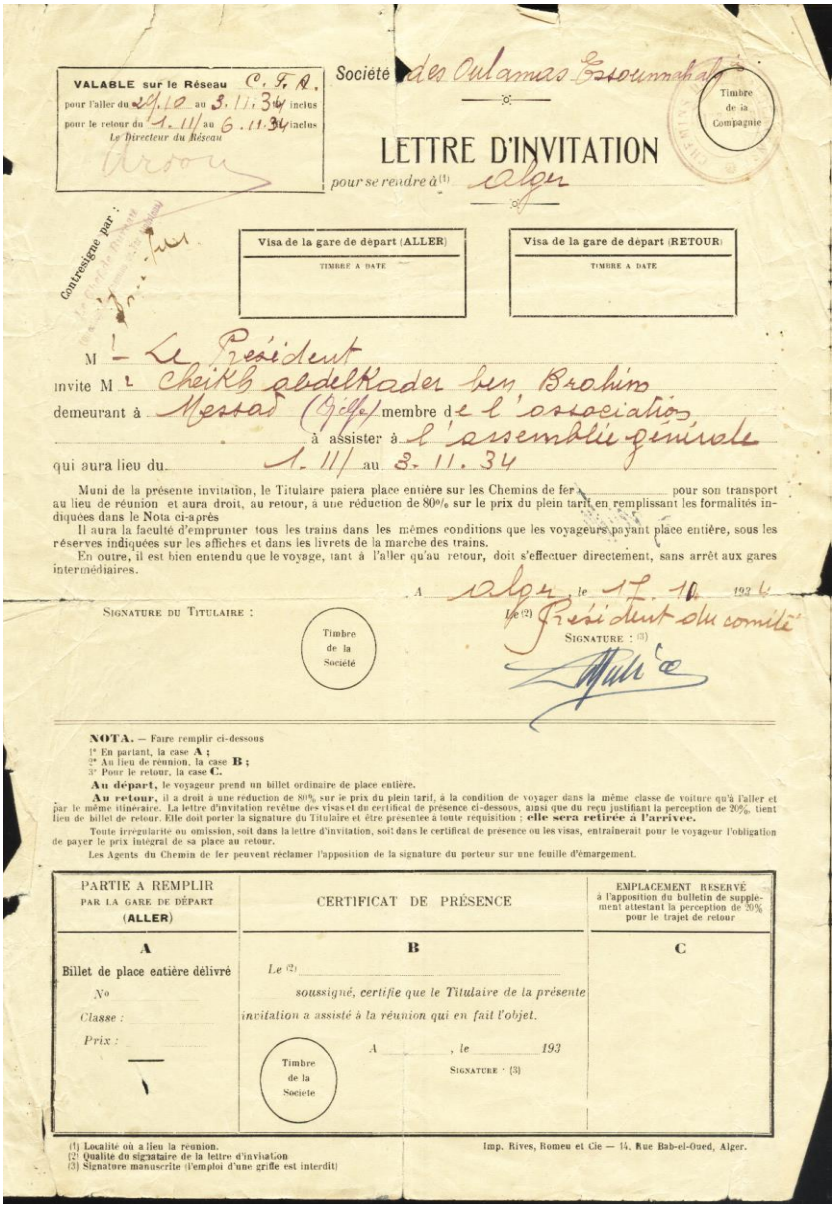

VALABLE sur le Réseau C. F. A.
pour l'aller du 29.10 au 3.11.34 inclus
pour le retour du 1.11 au 6.11.34 inclus
Le Directeur du Réseau

Société des Oulamas Bzoumahal

Timbre de la Compagnie

LETTRE D'INVITATION

pour se rendre à (1) Alger

Contresigné par :

Visa de la gare de départ (ALLER)
TIMBRE A DATE

Visa de la gare de départ (RETOUR)
TIMBRE A DATE

M Le Président
invite M Cheikh Abdelkader ben Brahim
demeurant à Messad (Djelfa) membre de l'association
à assister à l'assemblée générale
qui aura lieu du 1.11 au 3.11.34

Muni de la présente invitation, le Titulaire paiera place entière sur les Chemins de fer ..... pour son transport au lieu de réunion et aura droit, au retour, à une réduction de 80% sur le prix du plein tarif en remplissant les formalités indiquées dans le Nota ci-après

Il aura la faculté d'emprunter tous les trains dans les mêmes conditions que les voyageurs payant place entière, sous les réserves indiquées sur les affiches et dans les livrets de la marche des trains.

En outre, il est bien entendu que le voyage, tant à l'aller qu'au retour, doit s'effectuer directement, sans arrêt aux gares intermédiaires.

A Alger le 17.10 1934

SIGNATURE DU TITULAIRE :

Timbre de la Société

Le (2) Président du comité

SIGNATURE : (3)

NOTA. — Faire remplir ci-dessous
1° En partant, la case **A** ;
2° Au lieu de réunion, la case **B** ;
3° Pour le retour, la case **C**.

Au départ, le voyageur prend un billet ordinaire de place entière.

Au retour, il a droit à une réduction de 80% sur le prix du plein tarif, à la condition de voyager dans la même classe de voiture qu'à l'aller et par le même itinéraire. La lettre d'invitation revêtue des visas et du certificat de présence ci-dessous, ainsi que du reçu justifiant la perception de 20%, tient lieu de billet de retour. Elle doit porter la signature du Titulaire et être présentée à toute réquisition ; **elle sera retirée à l'arrivée.**

Toute irrégularité ou omission, soit dans la lettre d'invitation, soit dans le certificat de présence ou les visas, entraînerait pour le voyageur l'obligation de payer le prix intégral de sa place au retour.

Les Agents du Chemin de fer peuvent réclamer l'apposition de la signature du porteur sur une feuille d'émargement.

PARTIE A REMPLIR PAR LA GARE DE DÉPART (ALLER)	CERTIFICAT DE PRÉSENCE	EMPLACEMENT RESERVÉ à l'apposition du bulletin de supplément attestant la perception de 20% pour le trajet de retour
A	**B**	**C**
Billet de place entière délivré N° Classe : Prix :	Le (2) soussigné, certifie que le Titulaire de la présente invitation a assisté à la réunion qui en fait l'objet. Timbre de la Société A , le 193 SIGNATURE : (3)	

(1) Localité où a lieu la réunion.
(2) Qualité du signataire de la lettre d'invitation
(3) Signature manuscrite (l'emploi d'une griffe est interdit)

Imp. Rives, Romeu et Cie — 14, Rue Bab-el-Oued, Alger.

- وثيقة :خاص كتاب المسعدي حياته وآثاره -

- دعوة المسعدي لحضور الجمعية العامة لجمعية العلماء المسلمين لسنة ١٩٤٣ -

و قد اختار المسعدي التعليم مهنة منذ أن وعى بما حباه الله من علم و دراية حيث يقول: "و باعتباري عالم دين، لغوي شاعر عربي. كنت منذ اثنتين و عشرين سنة متطوعًا بإرشاد مَن استرشدني إلى التعاليم الدينية الإسلامية و اللسان العربي مجانًا إذ لم يكن ببلدي مَن يُحسن هذه الصنعة مِثلي و لذلك وجب عليَّ التعليم شرعًا" و هو ما جعله يركز على هدف نبيل في حياته من خلال الوقوف في وجه الجهل و ضد سياسة التجهيل. و محاولته فتح دروس الوعظ والإرشاد بالجامع العتيق بمسعد و عمل على تشييد المدارس للتعليم في كل من الجلفة و مسعد. و قسَّم الشيخ دروسه على أربعة أقسام فيه المبرزون فالمتوسطون فالطلبة المُحصِّلون و أخيرًا العامة و الذين كان منهم القاضي عطاالله بن أحمد. لكن لم تمضِ سنة حتى تخرَّج على يديه الكثير من الطلبة بعد أن امتحنهم و اختار لهم دروسًا يلقونها على مَراء و سمع أعيان البلدة. و رغم نشاطه الدؤوب و إخلاصه في العمل ألا إنَّه لقي عراقيل من قِبل المستعمر. و ها هو يرسم لنا ما وقع له من عراقيل و هروبه من مسعد إلى الجلفة و محاولته الاتصال بالحاكم للحصول على رخصة للتعليم، في الرسالة التي وجهها لشيخه الإمام الطاهر بن العبيدي السوفي حيث يقول: " ..أمَّا قصتي التي كنت أخفيها عليكم لئلا نحيركم..أنَّه في السنة الماضية قدم عليَّ ركب كانوا بالهامل يحملون رسالة من الشيخ مصطفى يأمرني بالإقراء و التدريس فأخبرتهم بما فتح الله عليَّ من الفراسة الإيمانية بأنَّ عاقبة الأمر تكون غير محمودة و لكن أسعفكم و استسلم للأقدار. فأخذت أعلمهم الحديث و الفقه في بيتي إلى أن تكاثروا فلم تعد البيت تسعهم فطلبوا التدريس بالمسجد الجامع و عندها ذهبت إلى إمام المسجد و مع علمي بنفاقه الباطني فسألته أن يأذن لنا في التدريس فأحال ذلك على حاكم الرباط.. فامتنع الإمام امتناعًا باتا..و قد واعدني الشيخ سي مصطفى القاسمي بأنَّه يتدخل في الأمر..و عليه فإنني لا أرغب في الرجوع إلى مسعد إلّا و بيدي رخصة.." ألا إنَّ شيخه العبيدي كان يُحرِّضه على بث العلم و التأكيد على ذلك حيث يقول في الرسالة المؤرخة في ٢٠ رمضان ١٣٤٧: ".. و إيَّاكم أن تتركوا العامة بغير دروس و لا إرشاد فإنّكم مسؤولون عن ذلك..". و نرى المسعدي في إحدى الرسائل مع الأستاذ عمر دهينة المدرس بمليانة يشرح له جملة من العراقيل و يطلب منه التوسط من خلال معارفه للحصول على رخصة للتعليم، و كان رد صديقه دهينة في رسالة جاء فيها: "...أمَّا اليوم فقد سألتم مِنِّي شيئا لست و

الله بقادر عليه إذْ لا رابطة لي و لا مواصلة مع مَن لهم في ذلك الحل. هذا مع إنِّي أظن كل الظن أنَّ طلبكم الذي قدمتموه سيستجاب نظرًا إلى التساهل الذي حدث أخيرًا من الحكومة نحو العلماء و نحو التدريس الحُر. و أنتم تعلمون أنَّها أباحت للجمعية الجزائرية إصدار جريدة البصائر. فلكم أن تذكروا ذلك – إن آلَ الأمر إليه – حاكم الدائرة بالجلفة .. "و نجده هنا يبشّر و يؤكد لصديقه ابن عياش بن الطيب في رسالة كتبها له من الجلفة يوم ٢٢ مارس ١٩٣٦ بأنَّ قضية التعليم و الحصول على رخصة ".. فإنَّ الأمر المرجى فهو لازال في طيِّ الخفاء و على كل حال فالمسالة مبسوطة الآن في القاهرة و نواب المسلمين يتكلمون عليها بجد و حماس زائدين و عليه فالمضمون أنَّه سيخرج إذن عام في تدريس العلوم العربية من دون شروط و لا قيد ..." و لم تكن هي المَرَّة الأولى التي تضيِّق فيها الإدارة على التعليم و منع المسعدي من أداء رسالته بل إنَّ عيون الاستعمار كانت تسجِّل و تقيِّد كل حركاته. فقد منعه حاكم رباط مسعد من التعليم و إلقاء الدروس بالجامع الكبير بمسعد سنة ١٩٢٨ بعد وشاية من القاضي عرابي عطا الله، و الذي كان أحد تلاميذه و يكنُّ له الكراهية و البُغض. كان يدرس كتاب الصلاة و كتاب الفرائض من سيدي خليل و أخبر الحاكم بأنَّ المسعدي يدرس له كتاب بعنوان (السيف المسلول) جلبه من تونس، و هو من الكتب الممنوعة من التداول لأنَّه مشتمل على ذم الاستعمار و يُكفِّر مَن والاهم و ينكر أعمال الطرق الصوفية، فأمر بإيداعه الحبس و بقي فيه مدة ثلاثة و عشرين يومًا و قد و كّل له أخوه محمد(١٨٩٦/ ١٩٤٠) أحد المحامين من البليدة يُسمَّى (م . لاقايارد) و تمكّن من زيارته في سجنه. ليفرج عنه بعد ذلك. ثم تتأسس جمعية ثقافية تربوية أطلق عليها اسم (السلام) في ١٩٣.

و في سنة ١٩٣٧ يتم تكليف المسعدي بالمحاضرة في النادي الإسلامي الذي تأسس في نفس السنة و يرأسه حران عبد الرحمن الخياط و أسندت أمانة المال للنعاس بن الزباش. و كوَّن النادي الإسلامي بعض أعيان الجلفة، مِمَّن وحَّدهم الكفاح المشترك و مصير التعليم العربي و مستقبل الأجيال. و قد قبل المسعدي المحاضرة بناء على شروط نوردها كما جاءت في عقد الاتفاق حيث يؤكد بأنَّه:" قبِل المحاضرة بالنادي الإسلامي في الجلفة على الشروط

التالية: الأوَّل أن تكون المحاضرة بالنادي في ليال ثلاث في كل جمعة مادمت ساكنا بمسعد فإذا انتقلت إلى الجلفة فخمس ليالي الثاني كل ما يأتي من قبل الحكومة فالإدارة تتولاه بنفسها الثالث ماذا وقع الاعتراض من جانب الحكومة أو الجماعة بغلق النادي أو إيقاف التدريس أو بحل الجماعة فإنَّ المدرس يبقى يخلص ما بقيت الجماعة أو النادي عند تجددها مبلغًا شهريًّا بخمسمائة و خمسين فرنكا.." . بقي يدرس بالنادي مدة ستة أشهر و يلقي دروس الوعظ و الإرشاد و لكنه تذمَّر من تحويل النادي إلى منبرٍ للخطب السياسية و الجمعيات المهنية مِمَّا اضطرت فرنسا إلى غلقه و فضَّل الانسحاب.

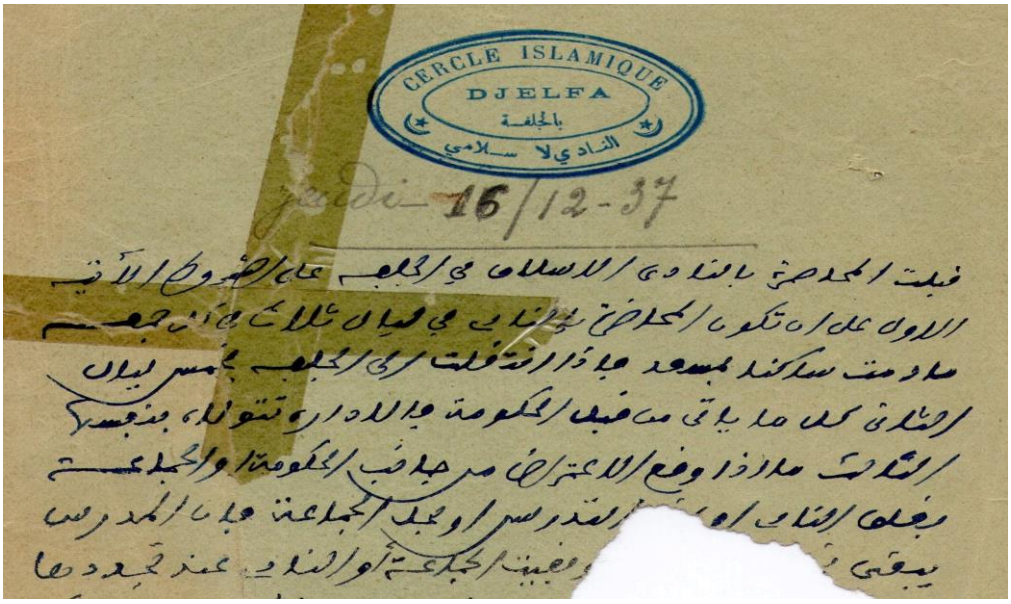

-- وثيقة :خاص كتاب المسعدي حياته وآثاره -

عقد عمل المسعدي مع هيئة النادي الإسلامي بالجلفة سنة ١٩٣٧ -

و في سنة ١٩٣٨ أنشئت المدرسة الحرة (الإخلاص) التابعة لجمعية العلماء. و قد اشتراها جَمْع من الأعيان و المثقفين. و كانت المدرسة تضم مجلسًا إداريًّا يتكون من ستة عشر عضوًا معظمهم من الأعيان و التجار و أصحاب الحرف. منهم خمسة أعضاء من شعبة جمعية العلماء. و بعد تأسيسها بعث الإمام الأستاذ الشيخ عبد الحميد ابن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين برسالة إلى رئيس مجلس إدارتها الشيخ محمد شونان مؤرخة في ٢٢ جويلية ١٩٣٨ يشكره فيها ويحثه على بث و نشر العلم و المعرفة. بعد تأسيس النادي بدأ أعضاؤه يتصلون بالمشايخ و المعلمين للالتحاق به و تعليم الطلبة و كان أوَّل الملبين عبد القادر بن إبراهيم المسعدي و الذي لم يمكث في منصبه سوى شهر واحد، فسرعان ما وقع بينه و بين إدارة المدرسة سوء تفاهم على الشروط و قد لخَّصها في رسالة بعثها إلى أعضاء النادي في ١٤ أوت ١٩٣٨ جاء فيها: " الحمد لله و الصلاة و السلام على رسول الله و آله و صحبه أجمعين. نداء و إعلان إلى جماعة الإصلاح و الإحسان. أيُّها الإخوة الكرام أحييكم تحية مفارق بكل أسف و امتعاض إنَّه لا يعزب عن علمكم ما وصلت إليه الحالة من التحرج من جراء الإرهاقات و الخلافات الناشئة عن فساد النيات و اختلاف المشارب و تباين المقاصد و تضارب الأغراض السيئة و ضعف الإيمان التي أدَّت إلى تشتيت الكلمة و انحلال الرابطة و التباغض و التدابر، طمع في الأمر أهله و استبد بالرأي و استولى على الجماعة المستضعفة بسبب تلك الأمراض مَن لم يكن يحلم و لا الناس له بذالك فسبحان مُقلب القلوب و على كل حال فهذا هو الزمان المُحذَّر منه و الذي جاء خبره مُصحَّحًا عن الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه و سلم من ارتفاع التحوت و انخفاض الوعور و إسناد الأمر إلى غير أهله الخ و هو من أشراط الساعة فهي واقعة لا محالة لا راد لما قضى الله و بعد هذا كله فأنا أعرض على من كرم خيمه و سلم من اللؤم أديمه سؤالا و منكم الإجابة و ما يذَّكر إلّا أولوا الألباب. جلبتموني من أهلي و عشيرتي من دون أن أفاتحكم بطلب أصلا بوعود مرفوعة كتابة و مشافهة مرارًا مكررة مع كل قادم ثم أوجدتم لي من خاصكم وعامكم رجالا و أنتم على علم و ذِكر من جميع ذلكم فلم أجد بُدًّا من إسعافكم فاستجبت لكم و لبيت دعواتكم التي رفضت مضجع حيث جعلتم تباعًا ذلك علي بين يدي الله إن أنا تأخَّرتُ و مَن خدعنا بالله انخدعنا له فلم نشعر إلّا و قد انقلب الأمر ظهرًا لبطن و أوَّل

ذلك قلبتم لي ظهر المحن و لا حول و لا قوّة الا بالله ..انقلب العرف شرًّا و الصداقة عداوة و المحبة بُغضًا و الولاء قطيعة و الوفاق نفاقا. كل ذلك بلا موجبٍ و لا داعٍ، و لله درّ صديقنا الإمام ابن عبد الرحمن رضي الله عنه **حيث يقول:**

تركوني و خلفوني وحيد لأناس أهان فيهم وأهضم

كم أفدت و كم نصحت و كم علمت و الله بالبصائر أعلم

مارعوا ذمة و لاحسن عهد فكأنّي أسأت فيما تقدَّم

و كأنّي كنت العدو المداج وكأنّي كنت الخائن المثم

حسبي الله حسب الله حسبي حسب الله هو أعلى و أحكم

إخواني تسميتم مصلحين و نِعْم الاسم و اللقب، فهلّا بدأتم بصلاح أنفسكم ثم بصلاح ذات بينكم فإن لم تفعلوا و لن تفعلو فلن يصلح من أمركم شيء دهر الداهرين و أبد الآبدين اِبْدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم. أخرِجوا من بينكم كل حلّاف مهين همَّاز مشّاء بنميم منَّاع للخير عتلٍّ بعد ذلك زنيم. اطردوا كل من فيه شائبة خيانة من موالاة .... أفشى السرَّ أو سعَى بين أفراد الجماعة بالفساد جانبوا بالله عليكم كل مَن رابكم حاله أو ماله و لاتخافوا في الله لومة لائم إن كنتم تؤمنون بالله حق الإيمان و لا تعتمدوا في أمركم ألّا على من صلح باطنه و حسن ظاهره و إلّا فتعالوا نكبِّر على جمعيتكم أربعا تكبيرنا على الأموات فهذه نصيحة أوجبها الشرع و أوحدها الطبع من أجْل خبر داخلة أمركم و درسها حتى قتلها علمًا و حللها فهمًا أدَّيتُها إليكم أداء الأمانة الواجبة و لست أبالي أقبِلتْ أم رُدَّتْ و لكن محط السؤال هو هل تجيز لكم المروءة أو يسوق لكم الشرع أو ترضون بالطبع لأنفسكم الأبيَّة بسمعة كهذه تتنقلها عنكم الأخبار و تروج عند الأخيار و الأشرار تعرض أولا على جماعة علماء المسلمين ثم على صفحات الجرائد الخافقين لتحكم الأمة فيها برأيها و تعطي كلا ما يستحق و ذلك أنَّكم دعوتم عالمًا من أئمة المسلمين

و ركنا من أركان الدين استهويتموه بمواعيدكم العرقوبية حتى استخفه لإجابتكم وزينتم له مفارقة اهله وماله فترك جميع ذلك راغبا عنه راضيا بمعاشرتكم مستفزا لدعوتكم غير مكترث بما زكَّ و لا بما يقال ثم و بدون سبب و لا جرم ارتكب تحكمون بإبعاده و مقاطعته إلّا بمجرد تشهى شرذمة السفهاء الذين لا يرقبون في مومن إلًّا و لا ذِمَّة فما المبرر لفعلكم هذا عند العقلاء إن معكم بقية ميز هل تطيب أنفسكم بأن تهملوا أمره فتتركوه في بلد غير بلده بعد أن جلبتموه بعهد الله و ميثاقه و حيث تحتَّم الفراق فهلّا كان بالتي هي أحسن و هلَّا أخذتم بخاطره فلم تسلطوا عليه السفهاء و السفلة.. هلَّا عملتم على رضاه خصوصًا و قد سألكم أمرًا يسيرًا هيِّنًا . إنَّما هو خلاص هذا الشهر الأخير شهر الحَر و القيظ أعني شهر أوت سبتمبر مع أجرة الانتقال ذهابا و إيابا و ذلك أمْرٌ تافه معقول لأنكم تعلمون أنَّ الإياب كان على نفقته فكان جوابكم النفي و الرد البات كأنَّكم تخاطبون عدوا لدودا ما هكذا يا عمر تورد الإبل.. فاسألوا بالله عليكم الناس إن كنتم لا تعلمون كيف يُعامَل العلماء في العالم أجمع فإنَّ شفاء العيّ السؤال. و ها هو اليوم تنازل عند رغبتكم لئلا يحملكم عن الصعب من أمركم و إن كان هيِّنًا في الواقع و نفس الامر و مَن يوقَ شُحَّ نفسه فأولائك هم المفلحون إنَّما يرغب من أهل الفضل و السُنَّة الذين جبلهم الله على أحسن الأخلاق من المواساة و الانعام و ضروب الكرم التي يحبها الله و رسوله و المؤمنون بل و العقلاء و غير العقلاء من حيوان و جماد. و تلك ثلاثة اشياء تافهة أوَّلها أجرة المسكن في هذا الشهر و ثانيها أجرة الانتقال ليرجع إلى موضعه بسلام و ثالثها تزويده بما تسمح به خواطر أهل الجود و الكرم إن دعتكم المروءة والغيرة و الإيمانية و الحزبية و إلّا فعلى الدين و المروءة السلام تحية مفارق إلى الأبد غير آسف على فائت و لا متلهف و لله الكمال سبحانه. و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته من كاتبه بعد التروي و الانتظار مدة الكليم عليه و على نبينا أفضل الصلاة و أزكى السلام. عبد القادر بن إبراهيم لطف الله به في الدارين... آمين ".

و بالمناسبة وجَّه المسعدي رسالة إلى الإمام عبد الحميد بن باديس يذكر فيها و يوضح ما وقع له و قد أرفقها بنسخة من المراسلة السابقة الذكر و جاء في رسالة المسعدي:"

... إنّي في أوائل هذه السنة دعاني أناس سُمُّو بالمصلحين بالجلفة و من حب الاصلاح و السعي في نشره لبَّيتُ دعاءهم و رفضتُ مصالحي و فلاحتي تركتها مجانا لمن يتولى حراسة الجنان تقديما للأهم على المُهم و لَّما حللت بينهم شرط القوم شروطا حسبتها وعود صادقة و ذلك التزام كراء المحل و دفع خمسمائة و خمسين فرنكا لكل شهر على أن يزيدوني فيما إذا وقع إقبال على النادي و إنَّ ما يأتي من قبل الحكومة يتولونه بأنفسهم .. و مكثت ستة أشهر أعَلّم بجد و اجتهاد لا أترك بدعة إلّا نبَّهتُ عليها و لاسُنَّة مهملة إلّا دعوتُ إليها الأمر الذي ساء الجماعة المتصوفة فسعوا لدى حاكم الملحقة بكل مالديهم من جاه و هدايا و عند ذلك أحضرني لديه فقال:علمت أنَّ قانون النوادي تبدَّل فيجب على كل من يريد المحاضرة بها أن تكون بيده رخصة أولية تخوله ذلك. فما عليك إلّا طلب الرخصة و نحن نتولى إرسالها و السلام. فعلمت ما يريد و يقصد فرجعت إلى الجماعة فأخبرتهم مشافهة و كتابة فما فهموا إلّا أنَّ الحاكم يريد الكيد لهُم و أنَّهم لا يستطيعون مجابهته فاستعفى الرئيس و نصف الجماعة و بقي النصف الاخر ...".

ألا إنَّ ذلك لم يثنه على أداء رسالته و بقي يُعَلّم في مسعد و الجلفة متخذا من مترله مدرسة و من المساجد معهدا لإيصال رسالة العلم و التربية و التعليم. و قد كان يزور الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في منفاه بأفلو كل أسبوع طيلة السنوات الثلاثة التي قضاها في المنفى و يأخذ إليه كل ما يحتاجه و كان في كل موسم يأخذ له قشابية مسعدية مصنوعة من وبر الجمال باعتبار أنَّ الظروف الطبيعية و المناخية بأفلو قاسية جدًا. و بعد خروج الأستاذ الإبراهيمي كان يزوره باستمرار في العاصمة.

و قد حضر المسعدي للاجتماع الخاص بانتخاب مجلس الإدارة لجمعية العلماء بعدما ترأسها الإبراهيمي بعد وفاة العلامة الإمام ابن باديس. و حِرْصًا على أداء الرسالة واصل المسعدي نضاله التربوي معلما و مجاهدا. حيث شارك في المؤتمر العام للمعلمين الجزائريين الأحرار بالعاصمة بمقر الجمعية و دام ثلاثة أيام من ١ الى ٣ سبتمبر ١٩٤٦ و قد ألقى فيهم المسعدي كلمة فيها من الحماس الكثير و تضمنت نصائح، سجلها في إحدى وثائقه

أهم ما جاء فيها:".. إخواني الأعزَّاء لكم التحية و بالأخص معشر الشباب الناهض رجال المستقبل و مَن عليهم المعول. تنبهوا أيَّدكم الله بروح منه من سباتكم العميق و أفيقوا من غفلتكم و اجتمعوا تحت راية دينكم القويم و تشبتوا بتعاليم نبيكم صلى الله عليه و سلم و اعملوا بوصاياه عسى أن يسعد بكم الوطن العزيز و يبلغ مناه و اجعلوا نصب أعينكم قوله صلى الله عليه و سلم حُب الوطن من الإيمان فياله من أصل أصيل و مترع جليل و رابطة متينة بعد رابطة الدين. تعالوا إخواني نتعاون و نتعاضد و نبذل النفس و النفيس فيما يعلى شأن الوطن العزيز و انظروا بعقولكم المنوَّرة و استفرغوا أنظاركم الصائبة و أتوا البيوت من أبوابها واحذروا هؤلاء المتهافتين..." .

و قد طلب سكان الجلفة و المناطق المجاورة من إدارة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و من رئيسها الشيخ الإبراهيمي خاصة أن يسعى لدى الشيخ عبد القادربن ابراهيم المسعدي لكي يقبل بالتعليم و يدرس لهم و لأبنائهم. فكاتبه الشيخ الإبراهيمي برسالة جاء فيها: " ... قد بلغني من جماعة الجلفة أنَّهم راغبون في قدومك إليهم و نحن نوافقهم على ذلك و نحضك على القدوم إلى الجلفة و فتح دروس الوعظ و الإرشاد و نحن واثقون أنَّك تخدم الحركة الإصلاحية لا في الجلفة وحدها بل في كل ما يحيط بها من قرى و أعراش ...". فكان و أن قدم إلى الجلفة بناء على طلب سكانها و نصيحة الشيخ الإبراهيمي و بقي يمارس التعليم إلى أن اعترضت الإدارة الفرنسية و ضيقت عليه مِمَّا جعله يقوم باتصالات مع عدد من العلماء و الأعيان للسعي من أجْل السماح له برخصة التعليم. وقد ردَّ عليه صديقه الشيخ مصطفى بن محمد القاسمي (١٨٩٧-١٩٧٠) شيخ زاوية الهامل برسالة بعد أن طلب منه التوسط فيها للحصول على رخصة التعليم، جاء فيها :" ... إنَّ حاكم الجلفة أجابني بأنَّه لم يرجع إليه الدوسي من الأغواط ليعطى نظره و أخبرني أنَّه يسعى في هذه في تخفيف المسألة. و أمَّا حاكم الأغواط فإلى اليوم لم يجبني و إنَّني كررت له الكتابة و طلبت منه الرفق والمساهلة ".

كما شكى المسعدي حاله إلى الشيخ محمد العاصمي (١٨٨٨ – ١٩٥١) مبينا له موقف الطرقيين المشعوذين من الحركة الإصلاحية و عراقيل الإدارة الاستعمارية و

قد أجابه العاصمي في رسالة جاء فيها:"... إنِّي محافظ على كل حال على وعدي لكم في مسالة التعليم و لن أزال مواصلا السعي في شأنه. والذي أوصيكم به دومًا أنتم الحقيقة بمحتاجين للوصية و هو ملازمة المسلك الديني العلمي الصرف الذي هو مبادي كما تلمون صرف الأوقات في بث العلم و الدين مع التجافي و التباعد عن الركض في مضمار عبدة الدنيا ...". ليعلن في نفس السنة (١٩٤٨) عن زيارة الشيخ الإبراهيمي للجلفة و الاطلاع على وضعية التعليم العربي الحُر و على نوادي و رجال الجمعية.

رحلاته

رغم أنَّ المسعدي كان منكبا على القراءة والكتابة والتعليم إلّا أنَّه كان يرحل من حين لآخر لزيارة شيوخه أو حضور اجتماعات و ندوات جمعية العلماء المسلمين. خاصة رحلته إلى زاوية الهامل لإلقاء دروس أو زيارة صديقه الديسي المدرس بالزاوية. و الالتقاء بالأعلام و الشيوخ الذين كانوا يزورون الزاوية بانتظام . و للمسعدي قصيدة قالها حينما وافى ختم ملحمة الحريري للسيد الخليل نجل المصطفى القاسمي بعد أن سُئِل أن يقول في ذلك شيء من شِعره و كان بصحبة **ولده محمد، فقال:**

محمد بشرني بعز و إقبال إذا ما حللنا في عريسة رئبال

إذا مانزلنا بين ليث و أشبل بهم تدفع الأوا و أبلغ آمالي

هُمُ العروة الوثقى هُمُ كعبة الندى هُمُ قبلة الرجى هُمُ صفوة الاءال

وكان بالمناسبة يلتقي بشيخه الطاهر العبيدي في الهامل، ففي إحدى وثائقه نجد بأنّه أجاز صديقه الروحي ابن عياش بن الطيب بالحديث المرفوع إلى السند حيث يذكر: " كتبت و أنا أضعف خلق الله البر الرحيم عبد القادر بن إبراهيم لطف الله بي في الدارين آمين حدثنا الشيخ الطاهر بن العبيدي بالهامل حدثني الشيخ المكي بن عزوز بسنده المتصل إلى سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معاذ إنّي أحبك فقل دبر كل صلاة اللهم أعنّي على ذكرك و شكرك و حُسْن عبادتك و قال الشيخ بسنده و أنا أحبك الخ و أنا أقول لك ياعبد القادر إنّي أحبك إلخ و أنا أقول لأخي الروحي يابن عياش بن الطيب إنّي أحبك فقل دبر كل صلاة اللهم أعنّي على ذكرك و شكرك و حُسن عبادتك

و قد أجزته به وأجزت له روايته عنِّي لَمن يحقق بذلك حسبما أجازني الشيخ رضي الله عنه فليشدد يده بهذا الكتر الذي تنقطع دونه آمال الرجال من سند صحبة سيد أهل الكمال و الحمد لله على كل حال ذالك فضل الله يؤتيه مَن يشاء و الله ذو الفضل العظيم " و هذا يدل على أنَّ المسعدي سمع عن العبيدي في الهامل.

كما كان كثير التردد على مدينة أفلو لزيارة صديقه البشير الإبراهيمي في منفاه حيث ثبت أنَّه كان يحمل له الطعام واللباس أمَّا زياراته للجزائر المحروسة فكانت لحضور اجتماعات جمعية العلماء المسلمين أو من أجْل لقاء صديقة الإبراهيمي في بيته.

وإذا ما وقفنا عند رحلات المسعدي إلى خارج منطقتي مسعد و الجلفة فإننا نجدها قليلة حيث حالت علاقة الارتباط بين المسعدي و والدته من تنقله حتى في طب العلم. و لم يعرف عنه أنَّه فارق مسقط رأسه إلّا مكرهًا أو قهرًا من خلال نفيه للجلفة أو هروبه من بطش

حاكم مسعد و ما كان يدبّر له من المكائد للإيقاع به. كما إنَّ رحلته المشهورة و التي امتدت إلى ستة أشهر كانت إلى تقرت في طلب العلم. كما إنَّه زار البليدة حسبما ذكره في رسالته مع العبيدي[1].

و الغريب أنَّه لمْ يسجل على المسعدي زيارة مناطق الجلفة اللهم إلّا مدينة زنينة التي كان يتواجد بها صديقه الروحي يحي بن السعيد بن عبد السلام و التي كان يزورها صديقه الشيخ الديسي باستمرار رغم عجزه. و ذكر خروجه إلى مدينة زنينة جاء الإشارة إليه في قصيدة للديسي التي قالها متغزلا في إحدى الروميات تسمى (كليمانس) و التي تزامن تواجدها مع تواجد الديسي و المسعدي في مركز بريد المدينة، **حيث ذكر** :

١ ربما لزيارة المحامي

كلمـــــانس مالهـــــا كثـــــر الله مالهـــــا

و أدام بهاءهـــــــــــا وأعـــــاذ كمالهـــــا

ماقرت ضـــيفها الـــذي هـــو يهـــوى جمالهـــا

لـــو لهـــا إبـــل هنـــا لرعيـــــت جمالهـــــا

و معـــي عبـــد قـــادر إذ يلحـــظ لهـــا لهـــا

ما قيل في مدحه و الثناء عليه

وصفه شيخه العلامة الطاهر بن العبيدي بقوله : "الإمام العلامة الهمام . خيثر المفهـــوم القاذف بجواهر المنطوق و المفهوم الخطيب المنشئ " .

و وصفه بقوله "غرة جبين الآداب، و درة الجحاجحة الألباب الـــراوي مـــن الكـــلام صحيحه و الزاوي من اللسان العربي فصيحة. الضرغام الذي إن تكلم أفهم ..و إن كتـــب أرعب أرهب و إن ناضل قضم و قصم و إن نازل قهر و ظهر "

و قال فيه: "بدر الأدب و اللسان عذب الصيقل و اللسان ذو الفضل الظاهر و الفخـــر الباهر.." .

و قال: " الأديب الذي له من غرر الفنون أوفر نصيب، غصن العلم الرطيب و بلبل الأدب الطريب "

و أرسل إليه مكتوب جاء فيه:" .. مجادة المولى الأجمل التريه الأكمل الأوجه الأنوه الإمام الهمام المرتقي من شامخ الأدب فنته و المنتقي من زاخر اللسان درته الشهم الذي إن نظم أعرب و أعزب و إن نثر أرعب و أرغب .."

و قال فيه:

و هو في الذوق و الفهوم و في الأن شاء بحر يجري صنوف الإفادة

كان سباق غاية في الحفايا و الخبايا إذا جال جواده

كان أهلا لأن يصدر للأمصار لكن ستر الشيوخ زهاده

و وصفه بقوله:

" الأديب البارع الذي ماله من مضارع. ليث البراعة و شيخ الصناعة. لايطيق مناظر صراعه. و لا يسارع إلى نصرة الحق سراعه "

و امتدحه الشيخ الأستاذ محمد بن عبد الرحمن الديسي قائلا:

" قسر البراعة و أفضل من أقرّ على أنامله اليراعة، بدر بني سعد و إن لم ينصفوه قبل و بعد إذ لو انصفوه لتوَّجوه بل لا زوجوه .. خير جليس و أفضل أنيس مَن تحسد عليه مسعد و إن كان أهلها بعلمه لَمْ تسعد "

قال له الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

"نحن واثقون أنَّك تخدم الحركة الإصلاحية لا في الجلفة وحدها بل في كل مايحيط بها من قرى و أعراش "

و قال عنه عندما سمع عن نشاطه الإصلاحي و قِلة ماله:

" هذا قليل عن المسعدي و المصاريف على عاتق الجمعية "[1]

وصفه الشيخ محمد بن بلقاسم بلحرش أغاليك أولاد نائل بقوله:

".. الدُرَّة الصالحة و النشاة الواضحة، قدوة الفضلاء وعمدة النبلاء العامل العلّامة.."

و مِمَّا حكاه لي الدكتور سالم علوي ذات مَرَّة، أنَّه قبل وفاة المسعدي بأيام زاره في مرضه رفقة كل من القاضي بوشنافة بولنوار من قصر البخاري و كان قاضي مسعد و الجلفة آنذاك و القاضي أحميميد المهدي و قال لهم المسعدي:" إنِّي رأيت في المنام الشيخ سيدي عبد القادر الجيلالي القطب و أشاع في جسمي نورًا و قال قُم يا عبد القادر لقد شفيت من مرضك هذا " حيث كان المسعدي أصيب بصفير.

قال فيه الشيخ احمد العبيدي:

إن جلت في الإنشا أتيت كما تشا و قريظكم منه الحريري يعجب

و وصفه كذلك بقوله:

"الألمعي الأديب اللوذعي الأريب الفاضل الكامل الفريد الحلاحل الدراكة الأمجد الفهامة الأسعد من مثله عديم أو نادر "

وقال فيه أيضًا:

لله درك يا نبيل العصر في رعي الذمام بصكه و كتابه

و فدتك نفسي من همام مصقع خاض القريض و ماعبا بعبابه

---

١ في إشارة إلى مصاريف تنقله للعاصمة لحضور اجتماعات جمعية العلماء

خضت الخضم في العروض و أنت في أدب العريض تجيد جوب صعابه

أمَّا اللسان فكنت قايد جنده و عريف دولته و قيل صحابه

إن قال هذا القطريف هل من نابغ كفء يكف الخصم سيف جوابه

ركض العلوم و جابها و أجادها من قام في نادي الفخار سطابه

قلنا فعبد القادر الحبر الرضى جوَّاب آكام العلا و رحابه

لازال في أهل اللسان مجددا عهد البلاغة ينتمي لجنابه

قال عنه الشيخ محمد العاصمي مايلي:

"المسعدي وهب قلم سيَّال و فكر فيَّاض و معلومات طافحة بكل مختار من القول"

وفاته ورثائه

فارقنا المسعدي يوم ٣٠ أوت ١٩٥٦ عن عمر يناهز ٦٨ سنة، ترك خمسة أبناء ثلاث إناث عيشة، زهرة، حليمة و ولدان هم الطاهر الذي سمَّاه على اسم شيخه الطاهر بن العبيدي، و محمد و هو الأصغر.

رثاه العديد من المشائخ و الشعراء، وعلى رأسهم الطاهر بن العبيدي **حيث يقول:**

مسعد حسرتي فقدت السعاد و خلعت تاج العلى و السيادة

كنت بين القرى محط رحال في بني نائل كقصر اشادة

كان نور العلم فيك مضيئًا إن فقد العلوم فقد السعادة

كان عبد القادر نجل إبرا هيم فيك أنواره وقَّادة

و هو في الذوق و الفهوم و في الإن شاء بحر يجري صنوف الافادة

كان يبدي مودتي في برور و احترام يزين فيه اعتقاده

و يقدر التعظيم للشيخ تأت للمريدين نفحة الاستفادة

كـــان ســـبّاق غايـــة في الحفايـــا و الخبايـــا إذا جـــال جـــواده

كـــان أهـــلا لأن يصـــدر للأمصـــار لكـــن ســـتر الشـــيوخ زهـــاده

في حيـــاة العظمـــاء نهـــزأ منـــهم و نـــريهم حقـــارة و حقـــادة

فـــإذا مـــا مضـــوا بكينـــا علـــيهم دمـــع زور و ذاك أقـــبح عـــادة

يـــذهب الصـــالحون الأول فـــالأو ل مـــتى قـــد صـــححوا إســـناده

هكـــذا ترفـــع العلـــوم في الأر ض و تبقـــى للجـــاهلين الســـيادة

في صـــحيح الحـــديث يـــذهب علـــم الشـــرع حـــتى لاتلتقـــى إرشـــاده

فنعـــزي كـــل النوائـــل فيـــه و ذويـــه و مَـــن أحـــسَّ افتقـــاده

ربنـــا ارحـــم فقيـــدنا و اعـــف عنـــه ثم هبـــه الحســـنى و زده ريـــاده

و ارضَ عـــن طـــاهر العبيـــدي و هبـــه خـــالص العلـــم كـــي يحصـــل زاده

إنَّمـــا هـــذه الحيـــاة متـــاع لـــيس فيهـــا بغـــير علـــم ســـعادةْ

- أمام قبر المسعدي -

كما رثاه الشيخ أحمد بن العبيدي بقوله :

نَعْيٌ أتى منه الشوامخ ترهب و الموت يسرع بالخيار و يذهب

بينا الفتى في سربه متأمنا يرجو الحياة و طولها يترقب

إذ جاءه الموت المشتت بغتة خطر جليل والمطامع تلعب

الله أكبر ساءني فقد الرضي خلي الوفي و ذاك خطب يكرب

عبد أضيف لقادر من مسعد سعدت به الأدبا و زال الغيهب

يا راحلا قد كنت شهما جحجحا أسفا عليك و دمع عيني يسكب

إن جلت في الإنشا أتيت كما تشا و قريظكم منه الحريري يعجب

فالديسي عدك من فحول حواضر بمحاضرات بحرها لا ينضب

صبرا جميلا يا بنيه وآله فالموت حتم ليس منه المهرب

إنَّا اشتركنا في المصاب به فنر جو الله يوليه الجميل و يكتب

و يحله الجنات مع أهل التقى فله السلامة و السلام الأطيب

ما قال مدهوش لفقد خليله نم كالعروس مهنئا لا ترعب